

اللَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٩﴾ مما يبرهن أن الساحر المتحدي آيات الرسالة فالج غير فالح حيث أتى، وبأية قوة وأية كيفية كانت، وعلى ضوئه ندرس أن الآية المعجزة غالبية على أية حال على السحر أياً كان وحيث أتى.

وهكذا نعالج بأس كل ساحر بسحره بقراءة آيات من الذكر الحكيم على موضع السحر بنية صادقة فيبطل. وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ : «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾: قال لا يأمن حيث وجد»<sup>(١)</sup> والقدر المعلوم منه من يعارض بسحره آية النبوة.

وإنما ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ دون «عصاك» على طوله وإجمالها، واختصارها وصراحتها؟ عصاه ينتبه مرة أخرى أن ليست عصاه بما هي عصاه تلقف ما صنعوا، تخلية لها عن اعتماده عليها، وتحلية لها بتجردها عن نسبتها إليه، وأن الله هو الذي يحولها كما يريد، وهو الذي يعيدها سيرتها الأولى كما خلقها.

ثم ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ كنتيجة حاسمة لتحولها ثعباناً مبيناً يلقف كيد ساحر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾ (١٧) فوقَ الْحَقِّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٩﴾ ﴿٢﴾.

فبالفعل ألقى موسى عصاه ووقعت المفاجأة الفاجعة الكبرى، فحولت كامل مشاعرهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه، ولا يكفي النطق للإفشاء والإفصاح به، فانهارت كل طاقاتهم النفسية فوقعوا على الأرض سجداً وكأنها دون اختيار، حيث الساحر أعرف بسحره من غيره، فأعرف بالآية الربانية التي تختلف تماماً عن كل أنواع السحر<sup>(٣)</sup>.

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله ﷺ ...

(٢) سورة الأعراف، الآيات : ١١٧-١١٩.

(٣) البحار ١٣ : ١٢١ في حديث الإمام الصادق عليه السلام ... فألقى موسى عصاه فذابت في =

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٦) :

وهنا ﴿فَأُلْقِيَ﴾ المجهول يصوّر ضخامة الموقف، بمدى تأثير الآية الإلهية في نفوس السحرة لحد لم يتمالكوا أنفسهم عن سجدة كأنها أتوماتيكية، وتراهم كيف ألقوا سجداً بعدما ألقى موسى عصاه، حيث ألقوا ما ألقوا؟

لأنهم رأوها ﴿تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾<sup>(١)</sup> واللقف هو تناول بحذق، وقد تناول ثعبان العصا وتلقف كل ما أفكوا.

فعصا صغيرة تتحول ثعباناً عظيماً فتلقف كل عصيهم وحبالهم من ناحية، ولها ما للثعبان من أعضاء خلاف حبالهم وعصيتهم التي كان يخیل إليه من سحرهم - فقط - أنها تسعى دون أعضاء، من أخرى، وعدم رجوعها ما لقفته من ثالثة، وعودها عصاً صغيرة كما كانت من رابعة، - وواحدة منها يستحيل أن تتم بأية حيلة ساحرة - كل ذلك جعل السحرة قاطعين كوضح النهار أنها آية إلهية قاهرة وليست حيلة ساحرة!.

وإنها اللمسة المفاجأة القوية تصادف العصب الحساس فينتفض كيان الإنسان كله، كما تصادف الذرة فتفجرها وتشرق النور عن ظلامها، وقد تحولت السحرة كلهم من ظلام الشرك إلى نور التوحيد بكلمة واحدة ساجدين ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾! ولماذا ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ دون

= الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها وفتحت فاهها ووضعت شديقها العليا على رأس قبة فرعون ثم دارت والتقت عصي السحرة وحبالها وغلب كلهم وانهزم الناس حين رأوها وعظمها وهولها مما لم تر العين ولا وصف الواصفون مثله قبل فقتل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضاً عشرة آلاف رجل وامرأة وصبي ودارت على قبة فرعون قال ﷺ : فأحدث فرعون وهامان في ثيابهما وشاب رأسهما وغشي عليهما من الفرع ومر موسى في الهزيمة مع الناس فناده الله : ﴿حَذَّاهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] فرجع موسى ولف على يده عباءة كانت عليه ثم أدخل يده في فمها فإذا هي عصا كما كانت . . .

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

«ربنا» أو «رب العالمين»؟ حتى يميزوه تعالى عن أرباب أخرى. فـ «ربنا» و«رب العالمين» قد يخيل منه أنه الطاغية لمكان دعواه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾<sup>(١)</sup> ولكن موسى وهارون الناكرين لكل ربوبية إلا الله، كان التصريح بهما في ذلك الموقف صراحاً لتلك الربوبية الصادقة الماحقة لسائر الربوبيات، مهما بدلوا الصيغة في حوارهم مع الطاغية: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. اعتماداً على تلك السابقة السابغة الصارحة الصارفة ﴿رَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وقد يتقدم هارون هنا على موسى لكي تحسم مادة ربوبية الطاغية لموسى ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا﴾<sup>(٣)</sup> فإنه موسى دون هارون، فليقدم عليه هارون حسماً لذلك التخييل واستأصلاً له عن بكرته.

هنا ﴿السَّحَرَةُ﴾ - جمعاً محلى باللام الدال على الاستغراق -، ألقوا سجداً مؤمنين بالله وهم إليه منقلبون، وفي يونس ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> والسحرة جم غفير وهم لم يكونوا من قوم موسى فكيف التوفيق؟.

علّ هذه القلة المؤمنة من قومه كانت قبل أن يلقي عصاه - وقد ألقوا حبالهم وعصيهم - وبعد عظته لهم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ... فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ...﴾<sup>(٥)</sup>.

ولكنما السحرة آمنوا به بعدما ألقى عصاه صامدين غير متخوفين كما هو صراح حوارهم مع الطاغية حين أخذ يهددهم!:

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٥) سورة يونس، الآيات: ٨١-٨٣.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلَكُم مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ﴾:

ذلك! وأنى للطغاة أن يدركوا الإسلام ويميزوه عن الاستسلام، أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب بأمر من مقلب القلوب، وحتى قلب الطاغية حيث أحب عدوه موسى ورباه في حجره عُمرًا دون أن يعرفه بعدائه.

وهكذا يخيل هنا إلى الطاغية أن الإيمان بالله هو - من ضمن سائر الاستسلامات لأمره - لا بد وأن يكون بإذنه، وكأن القلوب من ممتلكاته كما القوالب ضمن ما سيطر عليه بالسيف والنار، خلطاً بين القوالب والقلوب وهي لا تُقلب بإكراه ولا يُغلب عليها بإكراه ف ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾<sup>(١)</sup>!

ثم وركيزة الإيمان في القلوب درجات، فقد تضعف أم تنمحي بما يتغلب عليها تسويلاً، أم تبقى ولكن صاحبها يتظاهر بخلافها حفاظاً على حياته ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(٢)</sup> وقد تركز لحد تحلق على كل كيان المؤمن، وللحفاظ على سيادة الإيمان أمام الطاغية، وهدى المستضعفين المستغلين إلى الإيمان، لا يخافون أي تحديد أو تهديد وكما نراه من سحرة فرعون، فإن موقفهم الحاسم كان يتطلب هكذا صمود في ظاهر الإيمان كما في باطنه، فما قيمة إيمان في الباطن بكفر يتقى به في الظاهر، حيث يغري المتحرين عن الهدى ويبقي الباغيين للردى، وليس ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ إلا جوالاً يضر بكتلة الإيمان، ولا بالضالين المتقبلين له بحجة ظاهرة باهرة.

ونرى الطاغية هنا وقد خسر السحرة وهم كل من يملكهم من الحجة في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

تلك المباراة، نراه يتهمهم كما اتهم موسى، حسماً للموقف المتزعزع بين الحاضرين: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فهناك تواطؤ بينكم ومؤامرة كانت خفية، وقد ظهرت في ذلك المسرح الصريح.

وقد صبغ الموقف بصبغة سياسية إضافة إلى الروحية، إن السحرة احتفوا حول كبير لهم هو موسى وكما في الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴿٧٣﴾ لَا فُطْنَ... قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذه هي دعاية متعودة بين فراغة التاريخ أمام الرسل والمؤمنين، صداً لزعزعات المستضعفين، تزييناً لهم سلطاتهم الروحية والزمنية، وتهديداً بأن في تقبل الدعوة الرسالية زوالها وهي حياة الرعية، فالقائد يعارض تلك الدعوات حفاظاً على صالح الرعية روحياً وزمناً.

وإن في ذلك تعمية منهم في بعدين بعيدين، أولاهما هي فاسد السلطة الروحية الحاضرة، وأخرها هي صالح الأخرى الزمنية المحتضرة، إظهاراً للحق بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق «فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

ولما يرى الطاغية أن هذه الدعاية والفرية الماكرة لا تؤثر في صميم إيمانهم، ولا يزعزع من مكين إيقانهم، انتقل منها إلى تهديد بنوع آخر: ﴿فَلَا فُطْنَ﴾ استعلاءً بالقوة الغاشمة الوحشية التي تستعمل مع الوحوش، دون تمييز بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالنائبة.

﴿فَلَا فُطْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ عذاباً معمولاً متداولاً بحق أفسد المفسدين، ثم ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ عذاباً فوق العذاب لقمة الإفساد، ولكي ينظر الناظرون فيعتبروا، وينذر المنذرون فلا يتبعوهم، ومن ثم

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٣-١٢٥.

﴿وَلَعَلَّكُمْ أَتَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؟ هل هو موسى بما يهددكم بعذاب الأخرى، أم أنا المعذب لكم هكذا في الأولى، وأين غائب من حاضر، وموعد من واقع؟ ثم ﴿وَأَبْقَى﴾ سلطة، هل أن موسى هو الأبقى وهو في يدي وتحت سلطتي، أم أنا الأبقى، فأين إله موسى حتى يعذبني وملئي حتى لا نبقي؟ وأين هو من هذا المسرح حتى يبقى موسى فلا نبقي؟.

فلقد هددهم فرعون بما هدد فما أبقى، ولكنه ما يصنع التهديد - أياً كان - بحديد الإيمان وشديده بأشده، اللمسة الإيمانية التي وصلت إلى أعماقهم، واندغمت في ذواتهم، فلا تزهرق مهما أزهرقت أرواحهم، حيث آثروا على الحياة الدنيا بحذافيرها، فلا يخافون إذا أظافيرها بحذافيرها:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٦) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٧):

﴿قَالُوا لَا صَبْرٌ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِئَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾ (١) - ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقُمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ (٢).

هنا نرى قمة الصمود على ضوء الإيمان المحلّق على كل جناباتهم الحيوية، فلا يؤثرون عليه أمراً، ولا يؤثر فيهم دونه أمر مهما كان إمراً.

ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ قد تلمح بأنهم كانوا من قبل موحدين، أم أنه انقلاب بحكم الفطرة والعقل والآية البينة، ثم ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ تصريحاً أنهم ما سحروا هناك مباراة بل مجاراة للطاغية إكراهاً منه عليه، وعله بعد الانقلاب الأول لعصا موسى ثعباناً مبيناً لدى فرعون، وبعدما

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢٥، ١٢٦.

وعظهم ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ثم أكرههم فرعون على سحرهم وأن ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ بَلَدٌ...﴾ فلذلك تأدّبوا وتلّينوا مع موسى في المباراة.

ولذلك أصبحوا هنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ صموداً وزمناً، ومن صمودهم إحالتهم إيثار الطاغية ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ فطرية وعقلية وحسية وعلمية أماهيه وعلى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، أم قسماً بالذي فطرنا، وهما معاً معنيان، وأنت كمثلاً مفطور له، وقد فطرنا على فطرة التوحيد، ففطر الخلق من ناحية، وفطرة التوحيد المندغمة في الخلق من أخرى، آيتان بينتان بجانب هذه الآية العظمى أنه هو الله ربنا لا إله إلا هو ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ علينا كما تهددنا ف ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قضاءً مقصوراً بها، محصوراً فيها، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل.

ف ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ هنا تعم الأنفسية إضافة إلى الآفاقية، ونفس قصة العصا بيّنات، انقلاباً ولقفاً وعودة إلى سيرتها الأولى دون إعادة لما لقفت!

وترى كيف ﴿نَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وليست قضاءً إلا فيها على من فيها أم لهم؟ علّها لأنها مفعول به، وقضاء هذه الحياة الدنيا هي إزالتها، فقصارى قضاءك هنا قضاءها، حياتنا كما حياتك، وأما الحياة الآخرة وهي العليا فليس لك قضاءها، فأنت تهددنا بقضاء هذه الحياة وهي الدنيا، وشرعة الله تهددنا بالآخرة وهي الحياة العليا، وأنت شر وأدنى وأفنى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

ثم و ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قد تعني تعلمه وتعليمه وإعماله من قبل وفي هذه المباراة، والتماس الغفر عن الخطايا ليس إلا في المقصورة العامدة، أم والمكره عليها فيما يمكن التخلص عنها كهذه التي ارتكبوها وارتبكوا فيها، والآن هم يستغفرون الله عنها في ذلك الموقف الحاسم،

القاصم ظهر الطاغية، الجاسم الباسم ظهر موسى والذين معه، وهذه هي من قمم التوبة العليا، إنقلاباً كلياً إلى الله سناداً إلى آياته الباهرة وتبييناً لها بين الجموع المحتشدة الحاضرة، ملتجئين من الله أن يفرغ عليهم صبراً أمام الطاغية، وأن يتوفاهم مسلمين، تخليصاً لإيمانهم عن هذه اليد الأثيمة اللئيمة، مهما قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا في جذوع النخل، ف ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . . وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ! إنه ﴿خَيْرٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَأَبْقَى﴾ فيها ثواباً وعقاباً، وذلك رد على قوله الطاغية ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ .

﴿إِنَّكُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) :

وتراها واللتين بعدها هي تنمة المقال للسحرة؟ وكيف يكون لجديد الإيمان والناشئ على الكفر هذه المعرفة السليمة عن مستقبل المجرم والمؤمن! فهي إذاً بيان رباني لقضية الموقف، أم هم درسوا الشريعة الإلهية من ذي قبل كما تلمحناها من ذي قبل فنقلوا ما قالوه عن لسان موسى .

و﴿مُجْرِمًا﴾ هنا تعني إجرام ثمرة الحياة قبل إيناعها، إجراماً عقيدياً وإجراماً علمياً وأخلاقياً وعملياً، فردياً وجماعياً، نكراناً لخالق الحياة أم إشراكاً به، وتكذيباً بالحياة الأخرى ورسالة السماء، فلا يعني فاعل الصغيرة ولا الكبيرة فإنه لا يخلد في النار و﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَتَّر عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . . . وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ (١) .

﴿إِنَّكُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أن يموت بحالة الإجرام دون توبة سالحة ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ حيث الحياة الإجرامية حياة جهنمية، ثم و﴿يَأْتِ رَبَّهُ﴾ دون «الله» هو إتيان إلى يوم الرب بربوبية الجزاء، كما كان آتياً إليه يوم الدنيا بربوبيته



التكليف، فليس إذاً إتيان المجرم إلى مكان للرب، وإنما إلى مكانة الربوبية المناسبة ليوم الجزاء - ف ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> صادرون منه وراجعون إليه .

ثم ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ مواصفة لأبدية الخلود، وقد يتمسك بها في لا نهائيتها الحقيقية، ولكن التعبير الصالح عنها ﴿لَا يَمُوتُ﴾ دون تقيد بـ ﴿فِيهَا﴾، حيث الموت فيها يعني بقاء جهنم بعد موت من فيها، والآية تنفيها، وأما الموت معها إذ لا نار ولا أهل نار، فالآية لا تنفيها، ثم تثبتها أدلة أخرى كما فصلناها في مواضعها الأخرى<sup>(٢)</sup>، ومن أهل النار من يخرج منها ويدخل الجنة، فلا يموت أبداً لا في النار ولا في الجنة فالآية - إذاً - تشملهم.

وقد تخص ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ المؤبدن فيها، وأما الخارجون عنها فقد يموتون فيها ثم يحيون للجنة<sup>(٣)</sup> ولكنه احتمال لا نصير له قطعاً، والموت في الخبر مؤول إلى موت الأجزاء البدنية الجهنمية.

أجل ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ تخلصاً عن عذابها وهي باقية، ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ في ﴿لَا يَمُوتُ﴾ حياة لها حظوتها، بل هي موتات متواترة دون فصال، حيث عوامل الموت حاصلة، والحياة معها ماثلة، وذلك أشد العذاب أن يوازي

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) كما في سورة الإسراء والنبأ وأضرابهما حيث فصلنا البحث عن استحالة الأبدية الحقيقية للعذاب. وموت أهل النار في احتمالات أربع: موتهم فيها قبل فنائها، أم موتهم بعد فنائها، أم بقاءهم فيها دون زوال إطلاقاً، أم موتهم معها فناءً لهما، والآية إنما تنفي الأولى، والثانية تنفيها أبدية الخلود، والثالثة منفية بأدلتها، فالرابعة هي الصالحة بأدلتها.

(٣) الدر المنثور ٤: ٣٠٣ أخرج مسلم وأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] فقال ﷺ: أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل.

عمر المعذب فلا هو ميت فيستريح ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الواصب ما هو حي وما دام العذاب، ثم لا نار ولا أهل نار.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)﴾ :

فهناك أشد العذاب للآبدين في النار، وهنا الدرجات العلى للمؤمن الذي عمل الصالحات، وهذه تخص السابقين والمقربين وقسماً من أصحاب اليمين، فإن لهم خالص الرحمة في الأخرى ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾. وبين الفريقين طائفة أخرى من أصحاب اليمين لهم درجات عالية أم متوسطة أم دانية حسب درجات الإيمان والصالحات، وهم لا يدخلون النار. وطوائف من أصحاب الشمال يدخلون النار ثم يخرجون عنها قبل فناء النار، طال مكوثهم فيها أم قصر.

وتلك الدرجات العلى، الشاملة حظوة الروح والجسم معاً حيث ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>(١)</sup>. هي:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾ :

والعدن هي الاستقرار، والحياة المطلقة دون ممات أم خروج هي قضية فضل الله، كما الفناء مع فناء النار للآبدين في النار هو قضية عدل الله، ﴿وَذَلِكَ﴾ البعيد المدى والعظيم المثوى ﴿جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ قلباً وقالباً، إيماناً وعملاً صالحاً.

وهذه من المشاهد القليلة النظير في تاريخ الرسالات حيث تعلن في إذاعة قرآنية مدى حرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطانها، وانتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة العقيدة.

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.